((القيم الجمالية في تصاميم أقمشة وأزياء الأطفال وعلاقتهما الجدلية))

وإذا سلمنا أن الجمال يمكن في أرجاء الكون بشتى صور الإبداع والخلق الفنية، فإننا يمكن أن نجده في عالم الواقع بأشكال متنوعة. والفنون هي تلك الآثار الجمالية الرائعة التي ينتقي الفنان مفرداتها من الواقع بمهارة وصنعة ومعرفة، خالقاً منها قيماً مؤثرة في المتلقي.

وكما يقول بيكون "الفن هو الإنسان مضافاً إلى الطبيعة (٣٠، ص٨) لذلك فالفن يتغلغل في الحياة بكل تفاصيلها ويمثل النزعة الإنسانية في التعبير عن كوامن الإنسان والعاطفية والحسية كنشاط خلاق يصب في عالم الأخلاق والخير والجمال، فلو تصورنا الحياة بغير لمسة فن وبدون مسحه جمال فأي حياة ستكون حياتنا؟ وأي شيء حينئذ يمتعنا ويبهجنا ويدخل النشوة والسرور إلى نفوسنا؟

إن الاستجابة للجمال في شتى صوره والإحساس به وتذوقه والقدرة على الاستجابة للمؤثرات الجمالية تجعل المشاعر الإنسانية تهتز لها وتستمتع بها وتعيش معها، لذلك فإن التذوق الجمالي يمثل نبضات التفاعل بيننا وبين الحياة وإدراك علاقاتها بنوع من الوعي والفهم والحس الجمالي في كل ما نرى أو نسمع أو ندرك، فكل تذوق تصحبه متعة، ويشير "البسيوني" في هذا الصدد "أن الإنسان الحي هو الذي تتحول حياته إلى تذق ومتعة ولا يفوته موقف إلا وعالجه بحس الفنان وحكمة الفيلسوف وتأمل العالم، فيفي على خبرة يمر بها حيوية وقيمة دائمة" (١٩، ص٥٣).

والعمل الفني مهما اختلفت تعريفاته وتفسيراته فهو في النهاية تجسيد لأثاره أو انفعال وترجمة لخبرة يمر بها الفنان بأسلوب يتوفر فيه البحث عن علاقات بين عناصره سواء كانت لفظاً أو خطاً أو مساحة أو لوناً أو حركة أو شكلاً في صيغ جمالية لها وحدتها وطابعها المميز وعلى هذا فإن الفن يكشف لنا عن القيم الجمالية وهو وسيلتنا لتقنين هذه القيم ووضع المعايير لها، تلك المعايير التي بوساطتها نستطيع التعرف على مواطن الجمال في العمل الفني.

ويعد التصميم أحد أنواع الفنون الجميلة كونه يلعب مع المصمم دوراً هاماً في شتى قطاعات الحياة الاجتماعية حيث يمكنه المساهمة في حل المشكلات التي تواجه الفرد في حياته اليومية من خلال وضع الحلول التصميمية بأفكار وأساليب مبتكرة بعد الدراسة والتحليل والتفسير لتلك المشاكل، لذلك على المصمم (هند ص٢)

الواعي أن يدرك كافة المتطلبات داخل المجتمع ويبحث عن الوسيلة المناسبة والملاءمة لتطبيق أفكاه بوسائل جديدة ويزود خياله بالضروريات اللازمة لصياغة الأفكار الخيالية بصورة واقعية.

إن عملية التصميم تتكون من مجموعة أشكال لها مفهوم جمالي يتركز في (الوظيفة، التعبير، الدلالة) بحيث يحقق التصميم البعد الوظيفي للشكل قبل كل شيء ثم يعكس البعد الجمالي. فمنذ ارتباط الإنسان بالأشكال الطبيعية المحيطة بيئته، بدأ يفكر في استغلالها وتقليدها إلى أن تطورت هذه الحالة إلى محاكاة الأشكال من خلال إضافة أبعاد فنية بهدف تحقيق تأثير لدى المتلقي (المستخدم) فضلاً عن ظهور التأثيرات الفنية الصناعية وانعكاسها على صناعة الأقمشة والأزياء المنتجة، وقد غيرت هذه الإضافة الكثير من مفاهيم الإنسان تجاه الأشكال المتوفرة في بيئته بحيث أصبحت تضيف إلى الجانب الوظيفي تعبيراً جمالياً يفسر ويحلل حالة الإنسان الذي يعيش تلك اللحظات.

ولكي يرفع المصمم من قيمة الوظيفة والتعبير أضفى دلالات على الأشكال لتبقى مدة أطول وتستمر معه فتخلق بينهما بين الأشكال علاقات رابطة تسمو بالشكل إلى مرتبة أكثر اقتراباً من النفس محققاً بذلك بعداً جمالياً.

لقد استثمر الإنسان في تصميم حاجاته أشكال الأشجار والحيوانات والنباتات والطيور مدرباً بصره على إنتاجها بأبعاد ثنائية أو ثلاثية ناقلاً اياها – ثنائية الأبعاد – على ملابسها بتوزيع تصميمي فطري. بعد ذلك بدأ بتنظيم هذه الأشكال بتصميمات منها ما هو منقول حرفياً ومنها ما هو محّور أو مجرد، بحيث ارتقى بها إلى درجات من الدقة والتقنية أضفت عليها بعداً جمالياً أخذ يقيس به حركة أشكاله وواضعاً في الوقت نفسه تقويماً (معياراً) جمالياً يستخدمه لمقارنة نتاجاته المستقبلية.

بعد ذلك أصبحت أمامه مشكلة وجود موضوعات كثيرة لم يجد لنفسه فيها موطئ قدم مما حفز ذاته على أن تخترق هذه الموضوعات لتشابك معها وتثريها جمالياً، مما جعله يضع جزءاً من مفرداتها في تصاميم حاجات الأطفال معبراً بذلك عن الطفولة ودلالاتها ومحاولاً من خلالها إيجاد المفردات والأشكال الأكثر قرباً إلى نفس الطفل ضمن محدداته العمرية، وأي الألوان التي تكون أكثر ملائمة له. وهل بإمكان هذه المفردات والأشكال والألوان أن تحقق ذات الطفل وفقاً لمدركاته الحسية والعقلية وقدرته على التمييز بينها وكذلك تقييمها بين الرضى والرفض وإمكانية استغلال الجانب الإيجابي لأغراض تصميمها.

لقد أهتم الإنسان في عصرنا الحديث بتصميم الكثير من متطلبات حياته، حيث برزت أهمية التصميم في النهوض بالمجتمعات الجديدة وتلبية احتياجاتها وحل مشكلاتها وبالتالي تحسين وتطوير الخدمات والتنمية والاقتصاد التي تتطلبها تلك المجتمعات ومنها المساهمة في تصميم الأجهزة والمعدات والأثاث ووسائل التعليم وكذلك الأقمشة والأزياء حسب رغبة وطموح أفراد المجتمع. (هند ص٣).

بذلك تأثر مفهوم الجمال بآراء المفكرين والفلاسفة وروح الحضارة والعصر والمجتمع وإطار المذهب الفكري والفلسفي والعصر، وحتى القرن الثامن عشر حينما أصبح علماً فلسفياً معيارياً في البحث عن مشاكل الجمال والظاهرة الجمالية، عندما أطلق عليه المفكر الألماني (باومجارتن) (١٧١٤ - ١٧٦٢) لفظة الأستيطيقا عام ١٧٣٥، والذي يمكن الاستدلال عليه بطرق مناهج البحث العلمي والبحث التجريبي. فهو يمثل نظرية المعرفة الوصيفة والشعورية أو علم المعرفة الشعورية والتي ترتكز على الأفكار الغامضة التي يمكن تسميتها بآراء الذوق أو الآراء العاطفية، فيما يجعل الأفكار الواضحة هي من حصة أراء العقل أو الآراء المنطقية فكان هذا التعريف يمثل نظرية المعرفة لديه "إن الأستيطيقيا.. هي علم المعرفة الحسية وغاية الأستيطيقيا هي كمال هذه المعرفة الحسية وهذا هو الجمال.. ونقص المعرفة الحسية هو القبح" (١٤٤، ص٦١).

من ذلك أخذ هذا العلم يبحث في الأحكام المتعلقة بالأشياء الجميلة" ومن ثم فإنه يكون علماً معيارياً يمثل موضوعه القيم والمعايير التي يؤسس عليها هذا النوع من الأحكام المتعلقة بكل ما هو جميل" (١٠٤، ص١٧٩).

فيما عرّف (ايمانويل) كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الجمال، بأنه "ما يجلب اللذة يوجه كلي، وبغير تصور" (١٠٤، ص١٣٧). فهنالك نوعان من الجمال، (جمال حر) و (جمال تابع). إن الأول ينعدم فيه (هند ص١٨)

إن حكم الإنسان على شيء ما بالجمال لا يفترض وجود حقيقة مستقلة عم وجود الإنسان والطبيعة، بل إن الإنسان ذاته هو الذي يضفي صفة على الموجودات التي يحكم عليها بالجمال كي يكسبها جمالاً. ويتأتى هذا الأمر من خلال انفعال الإنسان إزاء الذيء الجميل وحضور الصفات الجمالية التي تحدد وجود الجمال في الموضوع. فضلاً عن تلك المعايير التي يفرضها المجتمع على لإنسان كي تستقيم أحكامه الجمالية. وهو بذلك قد أتسع أيضاً لعنصر القيمة التي يلتزم بها الإنسان في أحكامه الجمالية. وتؤيد الباحثة رأي سانتيانا "إن الوقائع التي يبحثها علم الجمال هي إما قيم، وإما وثيقة الصلة بالقيم" (٧٠، ص٥٩) بل أن الفيلسوف سانتيانا يعتبر" أن الجمال نوع من القيمة" (٧٠، ص٤٧). (هند ص١٩).

إن القيم وإن كانت تؤلف جانباً مهماً في شخصية الفرد وتؤثر في سلوكه وشعوره، فهي تساعد الفرد في تفسير سلوكه الكلي وذلك لكونها تؤثر في إدراكه ونشاطه المستقبلي وحياته العملية ينظر (٦٩، ص١٠٥). فالقيم تعد غاية في الأهمية سواء في حياة الفرد أو في حياة المجتمع، في حياة الفرد قترن بوجوده. فقد أكدّ (أولبورت Allport) بهذا الصدد، أن الشخص الناضج يحتاج إلى فلسفة موحدة لحياته كي يضع مقوماً لوجوده، وإن فلسفة الفرد تتأسس على القيم التي هي بمثابة القناعات الأساسية على ماهية الشيء الذي يشكل الأهمية الفعلية في حياته، مجهود الفرد لإيجاد نظام ومعنى لوجوده تتحكم به قيمه ينظر (١٧٧، ص٣١١). وهكذا تكون القيم جزءاً مهماً من الإطار المرجعي لسلوك الفرد سواء أكان ذلك في حياته العامة أم في المجالات الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية ينظر (٦٨، ص١٢٧).

فالقيم تعد جوهر الفرد والمجتمع، وذلك لأنها تحكم حياة الفرد وتدخل في كل تفكير أو نشاط يقوم به بحيث تشكل سلوكه وأسلوب حياته بطريقة مميزة وطابع خاص به ينظر (٥٤، ص٣٤).

إلا أن القيم لا تتحصر ف مجال معين، بل أن هنالك ثمة أنواع مختلفة من القيم، اقتصادية، وأخلاقية، وجمالية، وهي تتمثل كفائدة، معنوية أو مادية. فالإنسان يميل دائماً إلى تقييم الأحداث والمدركات والإنجازات ولا يكتفي بوصفها فقط. كما أن من المتعذر وصف الشيء دون تقييمه.

وللقيم ميزات. فهنالك الميزة الذاتية، والتي يتم النظر فيها إلى القيمة كقضية نسبية، حيث إننا نسبغها على الأشياء ذاتها... فيما تكون القيم التي تحمل ميزة موضوعية، أي الاتجاه الذي يدعو بأن القيم تعود إلى الأشياء ذاتها، وإن مفهوم القيمة ثابت لا يتغير، والذي يتغير هو المجموعات والفئات والأفراد، وكذلك أحكامنا بسبب المحيط أو الظرف أو التركيب البيولوجي ينظر (٥٧، ص١٨).

إلا أن وجهة النظر حالياً التي تؤخذ تؤكد على العلاقة القائمة بين الماد والتي تقيم وأولئك الذين يقيمونها، فالقيمة "هي على الدوام علاقة قيميه" (٥٧، ص١٩) بل أننا " نحكم على القيم من خلال انتمائها إلى مواقف مترابطة أكثر من انتمائها إلى قناعة مباشرة لدوافعنا أو رغباتنا الملحة" (٥٧، ص٢٢).

حيث يبقى ذلك الاختلاف الكبير في المعارف والأذواق والأعراف وفقاً لاختلاف الأفراد والجماعات التي تقرر نوعية. القيم. إلا أن القيم الجمالية، كأحد أنواع القيم عامة، هي قيم وثيقة الارتباط والاتصال بالفن، وتذوقه، والتي يعنى بدراستها علم الجمال.

وكما ذكرنا فإن الوقائع التي يبحثها علم الجمال هي أما قيم أو وثيقة الصلة بالقيم، وهذه القيم إيجابية في ميدان الجمال لأنها تنطوي على إدراك ما هو خير، وتعتمد القيم الجمالية بالنسبة لجورج سانتيانا على شيئين. الأول هو، الطابع المكتسب للشكل المثار في الإدراك الباطني" (٧٠، ص١٣٨) أي اكتساب الشكل في موضوع مما يمنحه لوناً جمالياً معيناً، "العلاقة بين الانطباع الحسي (هند ص٢٠).

المعين وبين الشكل الذي يندرج تحته ذلك الانطباع في مقولاتنا الإدراكية (٧٠، ص١٣٩) أي الملاءمة بين الصورة وبين الأثر الحسي الذي نقيس عليه ذبك الشيء المدرك.

فالقيمة الجمالية مبنيى على التقدير الجمالي، والاتجاه الموضوعي يرى أن القيم الجمالية كامنة في العمل والتي يمكن التحقق منها من خلال الحدس الذي ينطوي في ذاته على شعورنا باليقين ينظر (٧٢، ص٥٨٨) إذ أن القيمة الجمالية هنا يمكن إدراكها بصورة مباشر دون الحاجة للاستدلال عليها أو استنتاجاتها، باعتبار أن الجمال موجود على نحو مستقل عن إدراكنا. من خلال وجود سمات مرادفه له. كالوحدة والانسجام و..وغيرها. فيما يقترض الاتجاه الذاتي أن القيم ترتبط بذائقة المتلقي. أي "أنها حالة إحساس معينة أو تجربة يمر بها الراصد الفني فيما يتعلق بعمل فني محدد. وكلما ازدادت اللذة التي يحصل عليها الراصد الفني ازدادت القيمة التي يعوزها ذلك الراصد إلى العمل الفني" (١٣، ص٧٤).

وعلى الرغم من أن القيمة الجمالية تعلن عن نفسها "في الموضوع الجمالي فقط، على أنها قوة خالصة تقرر ميزة الوحدة الكلية للعمل" (١٣، ص٧٦)، الا ان (لاو) يؤكد على أن القيم تتغير، فتطور الأنواع الفنية" إنما هو أيضاً عملية تغيير في القيم" (١٣٣، ص١٦٥) بل أنها تنتقل من مستوى قيمة إلى مستوى آخر "ففي ميدان الأستطيقيا كما هو الحال في الميادين الأخرى، لا يضيع شيء ويفنى ولا يخلق فجأة وإنما يتحول من صورة إلى أخرى" (١٣٣، ص١٦٦). (هند ص٢١).

وحيث أن العملية التصميمية هي عملي إتصالية تعتمد على الطرف المرسل (المصمم) والطرف المستقبل (المتلقي) فللمصمم دور في إظهار وإبراز هذه القيم الجمالية فهو يجب "أن يتميز بالحس والتذوق الفني، أي أن يتسم بالقدرة على غدراك العلاقات من خطوط وألوان وخامة وتجميعها بطرق منسقة داخل الشكل أو التكوين لتعبر في النهاية عن قيمة جمالية عالية" (٦٧، ص١١) فهنا يظهر التأكيد على تطوير قدرة التذوق الفني عند كل من المصمم والمتلقي حيث "أنها نوع من السلوك تساعد الفرد على حسن الاختيار بين التكوينات العديدة وتعتمد على:

أ-الإحساس بالجمال: وهي استجابة الفرد للمثيرات الجمالية والفنية.

ب-الحكم الجمالي: ويقصد به مدى مسايرة الفرد للمعايير الفنية المتعارف عليها.

ج-التفصيل الجمالي: وهي عبارة عن الاتجاه الجمالي لدى الفرد والذي يدفعه إلى تقبل العمل الفني أو رفه أو النفور منه" (٦٧، ص١١).

ولتطوير القدرة على التذوق الفني من أجل زيادة الإحساس بالجمال والحصول على الأحكام الجمالية أو معرفة التفصيل الجمالي فلا بد من معرفة ما هي القدرة؟

(القدرة Ability) اصطلاح عام يشير إلى المقدرة على أداء عمل عقلي أو حركي قبل التدريب عليه أو بعده، وعموماً فالقدرات هي وسائل علمية لتصنيف الأداء، وهنا نركز على القدرة الفنية Artistic Ability وهي تعد قدرة مركبة من عدة قدرات طائفية أولية يتجمع فيها النشاط الذي يتعلق بالقدرة على إدراك الموضوعات في أشكال وألوان وانفعالات في علاقات تهدف إلى توحيد الأجزاء المختلف وتجميعها في إطار واحد يحكم عليه المختصون أو المتذوقون بأن هذا العمل ذو قيمة (هند ص٢٢).

جمالية عالية، وترجع أهمية دراسة القدرة الفنية غلى أنها ذات علاقة كبيرة بطرق التصميم ينظر (١٠٠، ص١٥٢ - ١٥٣).

فهدفنا هنا الوصول إلى حقائق نستند عليها لمعرفة أين تكمن القيم الجمالية في الأعمال التصميمية وكيف يمكن أن نستشفها من خلال تفاصيل هذه الأعمال وكيف نحكم عليها ونظهر قدراتها لتطوير هذه التصاميم.

وعلى ها "تعتبر القدرات الجمالية المهمة الأساسية السيكولوجية للفن" (١٠٠، ص١٥٨) وهي تصف علاقة الفنان بالأعمال التصميمية كمبتكر أو مبدع وعلاقة المتلقي (المتذوق). وكما ذكرنا فالتذوق الفني نمط من السلوك يتطلب إصدار أحكام على الأعمال الفنية (التصميمية) من الناحية الجمالية كي يبرز القيم الجمالية فيها.